الفصل السابع والعشرون

تقوية نسيج الجغرافيا عالميا

سواء اكنت قد قرأت الكتاب بعناية واهتمام أم مجرد تقليب صفحاته فلا بد وأنك قد لاحظت وجود موقف محدد فيه، وكما أشير في المقدمة، فقد خصص الوقت المتاح للتركيز على بعض التطورات الجديدة في حقل الجغرافيا وذلك لأنها جزء من القصة التي أريد روايتها في هذا الكتاب، إضافة إلى هذا، فهناك جوانب رائعة في التعليم من خلال الكتابة، خاصة في مجال الجغرافيا التاريخية حيث يمثل هذا الجزء فتوة الماضي وعظمته رغم وجود من يعارض هذه النظرة. وليس صعباً ملاحظة التوجه المقصود في هذا الكتاب من حيث الأمثلة الواردة فيه والتي قام بها جغرافيون من الولايات المتحدة، كندا، بريطانيا والسويد، فهل هذا تحدي؟ وهل الأفكارالجديدة حكر على هذه الدول، التي يسميها الفرنسيون بدول الأنكلو- ساكسون؟ هل بدأ هنا الانفجار الجغرافي المعاصر؟ وإنه لا زال مستمرا بقوته وصلابته؟

قد تؤدي قراءة هذا الكتاب الى جعلي شخصا غير مرغوبا فيه على مستوى العالم، وقد أوصف بالتعصب العرقي واللاأباليه والغطرسه وغيرها من العديد من الصفات غير الحميدة. وإجابتي عن هذه بالإيجاب لأني كانسان جامعي أشعر بالمسولية تجاه قول الحقيقة كما أراها، في الواقع، إن التقدم قد حصل في هذه الدول الأربع، يعني هذا، أن جميع الأفكار النظرية الرئيسية وتطبيقاتها قد ظهرت فيها، وقد تكون هناك نظريات جغرافية مهمة في المجر والصين وإن اهمالي لها راجع إلى عدم معرفتي اللغات التي كتبت بها، وفي هذه الحالة علينا ان نتعلم لغات العالم جميعها لنتعرف على جميع التطورات التي حصلت في الفكر الجغرافي.

وقد تكون هذه دعوة الى تعلم اللغة المجرية والصينية، ولكن هناك شيء أهم من الضروري التفكير به، الأفكار واللغة هما مجد الإنسانية العظيم وهما، في عين الوقت، البلاء

المرعب. إنها المجد لأننا بالمعنى العميق اللغة التي نتحدث بها وإننا بدونها لا نكون شيئا، وهي البلاء المرعب لأنها تشكل حاجزا كبيرا بيننا، والحواجز يتوجب كسرها دوما أو أسبوعيا من خلال إيجاد الصلات، وضعف الصلات يعني تركيبا مجزءا ويعني وجود فواصل وعوائق أمام انتقال الأفكار والآراء عبر التركيب، إنها حقيقة مؤلمة ان تكون الجغرافيا كعلم واسع الإنتشار مجزأة وأن تكون الصلة بين اجزائها ضعيفة. تؤدي الإنكسارات في التركيب والتشققات في بنية علم الجغرافيا الى بطء إنتقال الأفكار الجديدة والطرائق الحديثة وإنتشارها ما لم تكتب بلغة ذات انتشارواسع، أي، اللغه الانجليزية، ولا أقول هذا من باب التفاخر، بل على العكس الحزن والأسى، إنه اقرار بحقيقة بسيطة دون الابتهاج بها. فإنقسام العالم لغويا يعني بطء عمليات إنتشار الأفكار والطرائق الموجودة وتطوراتها والتي بدورها تؤدي إلى تبدل ملامح الجغرافيا وتطورها عالميا. فالجغرافيا في العديد من دول العالم لا زالت متخلفة عشرون سنة عن زمانها، وما برح طلبتها في المرحلة التجريبية التي عاشها الرواد في خمسينات وستينات هذا القرن وتجاوزها في العديد من اقسام الجغرافيا في أمريكا الشمالية، بريطانيا و السويد، وفي ذات الوقت. تستمر الجغرافيا في التطور وبسرعة في هذا البلدان من الناحيتين النظرية والتطبيقية وبهذا تزداد الهوة إتساعا بين اقسام الجغرافيا وطلبتها وفهمهم وتعاملهم مع الحقل المعرفي الذي تخصصوا به واتخذوه مهنة تؤطر حياتهم.

للسويد يد طولى في تطوير النظريات الجغرافية الحديثة وفي تطبيقها، ومعظم جامعاتها ناطقة باللغة الانكليزية وبالإمكان إلقاء المحاضرات باللغة الانجليزية ببطئ ووضوح على طلبة السنة الأولى وتكون نسبة استيعابهم ٩٠٪ ولربما أكثر من الناطقين باللغة الانكليزية أصلاً. وفي السويد تطبع العديد من البحوث باللغة الانجليزية. لهذا تنتشر الأفكار السويدية بيسر إلى الدول الأخرى عبر التركيب العالمي. فلدراسات جامعة Lund في ميدان الجغرافيا البشرية اهمية مميزة وقد قدمت مطبوعاتها الأعمال السويدية والفنلندية إلى العالم الواسع، وقد تمت الإشارة الى العديد منها في فصول هذا الكتاب. اضافة إلى ذلك قدمت هذه الجامعة تسهيلات النشر للجغرافيين الإنكليز والأمريكان للتعريف باعمالهم. وقد تنشر جامعة لوند سلسلة دراسات باللغة الفرنسية إلا أن الأفكار التي تحتويها ستنتشر ببطء حتى بالنسبة للفرنسيين، فعلى سبيل المثال، وبعد ربع قرن على نشر E. Kant بحثه الأول عن الأماكن المركزية في استونيا باللغة الفرنسية لم أجد من يشير إلى دراسته هذه (الفصل التاسع)، فهناك حواجز هائلة بين العالمين الناطقين باللغة الفرنسية واللغة

الانجليزية. هذا تلميح مباشر ومؤسف عن أثر اللغة في إبطاء نشر الأفكار وتطويرها. وقد يجيب الفرنسيون الى أن القليل من الكتابات الانكليزية تشير إلى مصادر فرنسية، فالجغرافيا في فرنسا محافظة جدا وتسيطر عليها مدرسة باريس، ومن وجهة نظر الناطقين باللغة الانكليزية هناك القليل الذي يمكن الإشارة اليه من حيث الأصالة والحداثة. وبالطبع، إن هذه مسألة الأخذ عن الآخرين وليس القيام بحركة إلى الأمام ذاتياً. ليس غريبا ان تلاقي الأفار الجديدةمعارضة شديدة من قبل معتنقي الآراء والأفكار القديمة، وفي بلد كبير مثل الولايات المتحدة فانه من الصعب حجز الأفكار وإيقاف نشرها طويلا. وكما شاهدنا في الفصل الثالث فان المجلات العلمية الجديدة تمر عبر بوباة النشرات التقليدية. وفي بلد صغير بعدد قليل من الجامعات، وبجيل من المحافظين التقليديين فان مرور الأفكار الجديدة يصبح أمرا صعبا حقا، مع هذا، هناك من يستطيع البدء في إتباع الطرق الحديثة وعرض الأفكار الجديدة والإشارة إلى مجلات جديدة وإلى الإحتمالات والفرص الجديدة المفتوحة أمام الجغرافيين، فعلى سبيل المثال، مثل الجغرافي Jorge Gasper في البرتغال صلة وصل مهمة مع الأفكار الانجليزية والسويدية حيث زار جامعة لوند لأشهر عدة كأستاذ زائر ونقل إلى الطلبة البرتغاليين المذاهب والطرق الجيدة والمشاكل التي تعالجها وتعتمدها الجغرافيا الحديثة.، كذلك شارك في تشكيل مجموعة تخطيطية جغرافية تعني بالتخطيط الإقليمي في Coimbra حيث تسود المدرسة الفرنسية والتي لا تهتم كثيرا بالعلاقة بين الجغرافيا والتخطيط الحضري والإقليمي، في فرنسا، يقوم الاقتصاديون والمهندسون بالتخطيط، وغالبا ما تكون الخطط ذات توجهات فنية ونتائج أقل ايجابية وذات الشيء يمكن ان يقال عن اسبانيا فللجغرافي Horacio Capel في جامعة برشلونه منظورا جديدا، ويبدو ان اهتمامه العميق بالفكر الجغرافي وتأريخه قد جعلاه قادرا على التجديد ومتوقعا له ومؤثرا في الوسط المحيط به، وفي البرازيل ظهر Antonio Christofeletti الذي أوجد مجلة جديدة تهتم بالجوانب النظرية في الجغرافيا مشجعا الجغرافيين الشباب لتطبيق معارفهم وتطوير خبراتهم. وقام Hubert Beguin في بلجيكا بتشكيل جيل جديد يعني بالتطورات الحديثة في الجغرافيا، وفي فرنسا خدم Paul Claval الجغرافيا خدمة جلى بتقديم سلسلة من الكتب والبحوث المترجمة من الانكليزية الى الفرنسية، ونتيجة الصلة المستمرة مع الكتابات الانكليزية والسويدية اشترك Christian van passen وزميله Joost Hauber في تشكيل المنهج التطبيقي والعملي في الجغرافيا من خلال مساهماتهما في العمليات التخطيطية. مع نهاية القرن الماضي بدأ تدريس الجغرافيا في الجامعات اليابانية (طوكيو وكيوتو)، ومن روادها Isamu Matsui و Joji Ezawa. والآن هناك توجه واضح نحو المنهج التطبيقي

في الجغرافيا. ويرتبط عمل العديد من الجغرافيين في بحوثهم مع مهندسين واقتصاديين وعلماء الاجتماع ودات الشيء ينطبق على بولندا حيث تمت مواجهة العديد من المشاكل العمرانيه الناجمة عن الحرب او انشاطرق جديدة، مد خطوط لسكك الحديد والتخطيط للمناطق العمرانية والتبدلات الواسعة في التنظيم المكاني. وقد كان Stanslaw Leszczek Kozimierz Dziewonski أنشط الجغرافيين في تشجيع المذاهب والطرق التطبيقية الحديثة واعتمادها وكان Antoni Kuklinski الأكثر اتصالا مع الجغرافيين خارج بلده.

ان التعريف ببعض الأشخاص في الفقرات أعلاه أمر متعمد وذلك لأن الأفكار تتحرك وتنتقل عبر الأشخاص. وهم بالمقابل مرتبطين بمجموعة كبيرة من الأفكار. فالجغرافيا سواء أكانت على مستوى البلد أم على مستوى العالم فانها ليست واسعة وبدون اوجه وأشياء عديدة. إنها تركيب دينامي مكون من اشخاص حقيقين يدخلون الحقل المعرفي ويتقاعدون منه ويتغيرون ويتعرضون إلى عامل النمو والطور الفكري. ولربما نستطيع نقل الفكره عبر الصلة بين الأفراد والتركيب الفكري لهم منأجل توضيح البناء العالمي للجغرافيا. لنفترض اننا احدنا جميع المهنيين المختصين بالجغرافيا في العالم، وأدخنا اسمائهم في سطور مصفوفة تمثل أعمدتها جميع الكتب والبحوث والدراسات التي أشير اليها في كتاباتهم. ولنفترض ان العلامة (×) في المصفوفة تعني اعتماد المصدر المشار اليه، عندها يتأشر الجغرافي الإنتقاني لمصادره وقراءاته، وقد يكون البعض الآخر ذي ابعاد كثيرة وقراءات متنوعة، فاذا استخدم جغرافيان ذات المصادر حينئذ تتحقق الصلة بينهما، وتشكل مجموعة هذه الصلات التركيب. وبالتأكيد ليست هذه هي الصلة الوحيدة التي يتكون منها التركيب. وبالإمكان اختبار الصلات الشخصية ودرجة متانة الاهتمامات العلمية و البحثية.

اقترح ان ننظر إلى الجغرافيين حول العالم كشكل هندسي متعدد الأبعاد والصلات. الجميع مرتبطون مع بعض بشكل أو باخر وبدرجات متباينة من الاشتراك في الاهتمامات والمصادر المعرفية. باعتماد هذه النظرية الهندسية الغريبة يتضح لنا وجود اشخاص يعملون مع بعض في موضوع واحد «دراسات عن الانتشار المكاني مثلاً» وبهذا تكون الصلة بينهم قوية. أو قد تنعدم هذه الصلة، أو تكون عبر سلسلة طويلة من العلاقات الثانوية من خلال اشخاص يعملون في موضوعات اخرى مختلفة، وقد تكون المدرسة الفرنسية أو الأنكلو ساكسونية ضعيفة الصلة إلا أن ثنائية اللغة للعديد من الجغرافيين تجعل الصلة ممكنة، ولدي انطباع خاص بان الجغرافيين البرتغاليين المحدثين أقل ارتباطا من سابقيهم بالمدرسة الفرنسية وإنهم يقيمون صلات جديدة، وإن الجزء الانكلو ساكسوني

من التركيب الفكري الجغرافي كبير ويتسع مع الزمن، مع جغرافيين من استراليا، نوزيلندا، نايجيريا، الهند، جامايكا، ماليزيا، باكستان وغيرها من بلدان العالم، بزيادةالصلات يتقوى التركيب، وكلما كان التركيب قويا سهلت عملية انتقال الأفكار والآراء بين الأشخاص وتتطور الجغرافيا اسرع وبتناغم بين ارجاء العالم، وعندما يكون الجغرافيون المهنيون أساتذة جامعيون يشرفون على بحوث طلبة الدراسات العليا فان طلبتهم سيكونون جزء مهما من التركيب الفكري الجغرافي، لقد أعطتنا هذه الطريقة الغريبة للنظر الى التركيب الفكري الجغرافي خلاصة مفادها ان هذا التركيب غير ساكن وإنه في حالة مستمرة من التغيير والحركة من خلال الصلات الجديدة وورود جغرافيين جدد إنه تركيب غريب لأن الأشخاص يخلقون المصادر، وهذه بدورها تشكل احتمالات جديدة للصلات، لاحظ، أننا إذا نظرنا إلى المصفوفة بطريقة معكوسة، تصبح الأعمدة اسطرا والأسطر تتحول إلى أعمدة، عندئذ يكون الاشخاص اساسا لنسيج هذا التركيب، فاذا لم تكن تعرف اللغة المجرية فكيف يتسنى لك قراءة المقالات الجغرافيا الرائعة التي كتبت بها؟

عندما نتحدث عن الجغرافيا كمؤسسة عالمية (أو حتى على مستوى القسم العلمي في الجامعة) سيتمحور الحديث عن التبدلات التي تحصل في التركيب ونتسائل عن إمكانية تقوية النسيج وجعله متعدد الأبعاد وبصلات افضل لتعيش الأفكار والإاء وتتحرك بابعاد متعددة.. فتح لنا التفكير بهذه الصيغة الهندسية مجالاً لإقتراح طرقا مختلفة لتغيير هذا التركيب وتقوية نسيجه. أولاً، زيادة عدد الأشخاص والمصادر العلمية في تركيبة الصلات، ولا يتم هذا فعليا ما لم يكون الاشخاص والمصادر من الأهمية بحيث يشار اليهم، وإلا فاننا سنؤدي إلى ريادة في تجزئة التركيب واضعاف نسيجه، فكل حقل علمي بحاجة الى اشخاص ذوي أبعاد عالمية وأفكار بذات الصفات، ومن أفضل الطرق لإيجاد الصلات هي يجعل الأفراد يتقابلون وجها لوجه لمناقشة الأفكار ويتعلمون من بعض، وهذا شيء مهم جدا خاصة بالنسبة للجغرافيين الشباب الذين يبدأون حياتهم المهنية، إذ أن لهذه اللقاءات أثر كبير على سيرتهم العلمية والصلات التي يكونوها ومن سوء الطالع أن مؤسسات الدعم المالي للبحوث والدراسات سواء على المستوى الوطني أو العالمي فانها توجه دعمها المادي الى ما أسميناهم في هذا الكتاب (بالخبراء عند الطلب) المستعدون لركوب الطائرة وتلبية النداء الهاتفي حال الإنتهاء من المكالمة، نادرا ما تثمر المؤتمرات الدولية عن اشياء ذات حداثة. تتلخص المشكلة بقلة المصادر المالية المخصصة للباحثين الشباب رغم أنهم يشكلون جزءا كبيرا من البناء المستقبلي للجغرافيا، وبالإمكان عمل الكثير إذا أثير هذا الموضوع من

قبل اشخاص يعملون في مؤسسات الدعم المالي للبحوث وهم من خارج الحقل العلمي المعني. فالباحثون الشباب يترددون في طرح مثل هذه الموضوعات لأسباب معروفة. وفي العديد من الأقطار يكون صعبا جدا على باحث شاب ان يقبل دعوة لإلقاء محاضرات أو حضور مؤتمر خارج بلده ما لم يكون اعضاء قسمه العلمي من الباحثين القدامى قد تمت دعوتهم اولا، بالمقابل، في بعض البلدان تكون هذه الفرصة متوفرة ومفتوحة للشباب، انها الحقيقة، ولكن نادرا ما يتم مناقشتها، الطريقة الاخرى لتقوية التركيب الفكري الدولي للجغرافيا بتوفير الأموال للقيام سنويا باعمال الترجمة، بإمكان الجمعيات الجغرافية القطرية ان تعيد النظر في الكتابات الحديثة واختيار الأعمال التي فيها ما تحتاجه لمعالجة مشكلة معينة او لمساهمتها الفكرية المتميزة. بالامكان ترجمة هذه الاعمال مباشرة وبهذا تكون الافكار متيسرة ومنتشرة، بهذه الطريقة تكون الجمعيات الجغرافية، وطنية او عالمية، قد قامت بالمهام الموكلة اليها بالتعريف بالفكر الجغرافي والتطورات التي تحصل فيه، اليوم الذي يشترك فيه الجغرافيون بلغة واحدة بعيد كما هو حال المجتمع الإنساني، ولكن هناك موضوعات بامكان كمية قليلة من الاموال أن تعمل الكثير لتقوية الصلات ونسيجة التركيب الفكري العالمي. وليست الاموال في المشكلة الوحيدة، بل الأولويات: إما الجيل الأول أو جيل الجغرافيين الشباب، جيل الغد.